حسن توفيق (أفندى) العدل
قرن يتكلم

هذا رجل غبين ، وحقه الصدارة والتقديم ، يمر على وفاته فى العام القادم قرن من الزمان ، تعاقبت أمم. وتغيرت بلدان ، وسحب النسيان بعض ذيوله عليه، إلا ما يكون من الخاصة العارفين فضل الرجل وقدره ، وما هو بالضئيل ولا الهزيل، توفى هو والبارودى فى سنة واحدة ، وكلاهما علم فى بابه ، فلعلنا فى العام القابل نحتفل بكليهما الحفل المناسب ، وبمحمد عبده الذي توفي فى سنة ١٩٠٥ .

جاء حسن توفيق العدل إلى الدنيا فى مارس ١٨٦٢ ورحل عنها فى يونيو ١٩٠٤ ، غشيه كما غشى وطنه الاحتلال الإنجليزى ، آخذًا بمخانقه ، ومن شأن هذه الأحداث أن تزلزل الركين الراسخ القوى ، ذا القلب المتوثب الطموح ، فراض صاحبنا الأحداث كما راضته .

تعلم الرجل فى الأزهر آنذاك وهو الذبالة الوحيدة - أو تكاد - التى تضىء الهزيع الأخير من القرن التاسع عشر ، وحصل منه على أربع إجازات على طريقة التعليم القديمة ، ولكنه تطلع إلى إكمال تعليمه فى دار العلوم - وقد تأسست ١٨٧١ ، وكان قبلها قد شدا طرفًا من الفرنسية هو ورفيقه الشيخ محمد شريف سليم عميد دار العلوم فيما بعد ، ومحقق بعض ديوان ابن الرومى ، وقد درس أطرافًا من العلوم الكونية أو الحديثة فى مدرسة الشيخ صالح الليلية ، وربما كانت هذه هى المدرسة التى تعلم فيها شوقى وأحمد رامى فيما بعد ، ومن طريف نظمه آنذاك مدلاً بمعرفته الفرنسية :

يا أديبًا إذا لقيت أريبًا وظريفًا وقد علاه الوقار

قل له بالنهار «بنجور مسيو» وإذا الليل جن قل «بنسوار» .

تخرج حسن أفندى توفيق فى دار العلوم فرقة وحده ، سنة ١٨٨٧ ، حيث لم يكن فى تلك السنة معه زميل ، وكان لتخرجه رنة بشرى فى محيط أسرته ومعارفه، خاصة حين رشح للعمل معلمًا للغة العربية فى المدرسة الشرقية ببرلين، بناء على طلب من حكومة ألمانيا إلى نظارة المعارف المصرية .

كان الرجل مثل قرينه القديم رفاعة رافع الطهطاوى طلعة ، تشرئب مطامحه إلى معرفة ما عند الغرب ، وكان الاحتلال الإنجليزى هنا شاحذًا للهمة أن تقف على طرائق النهضة ، وعوامل التأخر لدينا .

سافر صاحبنا إلى الإسكندرية ، واستقبله الخديو توفيق - تكريمًا للعلم - طالبًا إليه أن يبذل غاية جهده فى تحصيل المعارف - حدث شىء شبيه بهذا مع طه حسين فيما بعد - وأنعم عليه بالنيشان المجيدى ، وحين وصل إلى برلين كان قد استقبله قبلهاقنصل ألمانيا ، وزار نجلى الخديو اللذين كانا يدرسان فى فيينا ، وقضى الرجل خمس سنوات مبعوثًا يعلم العربية ، ويتعلم الألمانية حتى أتقنها ، ويعقد صلات وثيقة، مع كبار الشخصيات الألمانية فقابل الإمبراطور ، وكتب عن بسمارك كتابات ضافية ، لعلها أول كتابة عربية عن الرجل ، الذى أعجب بحسن توفيق أفندى شاكرًا له ما كتبه ، وتجول فى أنحاء أوروبا أثناء عودته ، وحين عاد عمل بدار العلوم ومفتشًا للغة العربية بنظارة المعارف .

كل هذا من الممكن أن يشاركه فيه غيره من المبتعثين ، بيد أن صاحبنا كان مختلفًا ؛ إذ أسفرت رحلته عن طائفة من المؤلفات الرائدة فى بابها ، ولذا نعده - بلا مبالغة - رائدًا من رواد التنوير فى مصر كلها .

ثمة مؤلفات جديدة أخرجها الرجل ، أو طبعت بعد وفاته ، وكل واحد منها يشهد بأن الرجل كان ذا عينين : واحدة ترى ما هنالك معجبة وناقدة ، تحلل وتناقش دون غشاوة من التقليد ، غير الحفاظ على التقاليد المرعية ، والآداب الضابطة فى أمته ، وعين أخرى تنظر - فى أسى - إلى بلده وما أصابه دون أن يخلع جلده ، بل كان الرجل وزانا بين هذا وذلك لا يميل به الميزان .

كانت قضايا التربية شاغل الناس آنذاك ، وكانت دار العلوم من المدارس التى

أخذت على عاتقها تلك المناهج بما يتسق وطبيعة الحياة المصرية ، ومع أن المناهج التربوية الإسلامية كانت شاغل بعض المستشرقين ، ومن قبلهم قادة الفكر العربى، وربما نذكر فى هذا الصدد كتاب التربية فى الأندلس لخوليان ريبيرا وترجمة د. الطاهر مكى - فإن الناس قد نسوا بعضًا من تلك الطرائق أو تجمدت ، حتى اتصل المصريون بأوربا بداية من الطهطاوى ، ومروراً بصاحبنا حسن توفيق العدل الذى ألف «البيداجوجيا» التى انتظمت تربية النفس والبدن ، فعرجت على الأخلاق والقيم ، والرياضة ، ومن العسير أن نختصر هذاا لمؤلف القيم ، وحسب الإشارة إليه .

غير أن ريادة حسن أفندى تحققت أكثر فى مؤلفه «تاريخ آداب اللغة العربية» ، وكان فى الأصل مذكرات أو مجموعة محاضرات كان يلقيها الشيخ على طلبة دار العلوم . وتوفى دون أن يطبع ، حتى طبعته نظارة المعارف على نفقتها سنة ١٩٠٦ بمطبعة مدرسة الفنون والصنائع ، وهو أول مؤلف فى هذا الفن ؛ حيث كان الأدب يدرس بالطريقة القديمة أمشاجا من المنظوم والمنثور ، كما هو الحال فى العقد الفريد والكامل ، والأغانى دون خطة واضحة ، إلى أن جاء هذا الرجل بكتابه متأثرًا فيه بطريقة الألمان - وكان أستاذاً هنالك - فقسم الأدب إلى عصور ، وربط الأدب بالسياسة وقيام الدول واندثارها ، واستغرق الكتاب ثلاثة عصور الجاهلى وصدر الإسلام وبنى أمية ، إضافة إلى خمس مقدمات ، تحدث فيها عن الحياة العقلية والبيانية لأمة العرب ، وكان هذا الكتاب قد توسع فيه صاحبه وترك منه نسخة لدى المستشرق براون ، ولم يعثر عليها حتى الآن ، وجاء بعده دارسو الأدب فاحتذوا حذوه حتى من درس هذا العلم من الأجانب فى الجامعة الأهلية المصرية ، فضلاً عن الذين جاءوا بعده ، واتخذوا سبيله ، ومن أشهرهم : جورجى زيدان ، والرافعى ، وطه حسين وشوقى ضيف ، وأحمد الحوفى ، وحفنى ناصف وإخوان هذا الطراز ، وربما يحسن الجمع بين تلك الطريقة العدلية وطرائق البحث الأخرى التى تولى النصوص عناية أكبر ، دون الاقتصار على منهج واحد .

وللرجل ريادات أخرى فى أدب الرحلات ، منها : رحلة إلى ألمانيا وسويسرا ،

وحققها د. محمد حسن عبد العزيز وقدم لها بمقدمة ضافية ، أفاد فيها من كتابات الأستاذ محمدعبد الجـواد ، صاحب تقويم دار العلوم ، وصاحب البحوث اللغوية والتاريخية الجيدة ، وقد أفاد كاتب هذه السطور من كليهما ، ويحسن أن يذكر فى هذا المقام التحقيق الجيـد الذى قام به د وليد خالص لكتاب تاريخ الأدب للعدل ، مع تقدمـة جيـدة ، وقد غطى هذا الكتـاب على كل الكتابات السـابقة التقـليدية والمحاولة للتجديد ؛ وبخـاصة كتاب جمعه إدوارد فانديك وقـسطنطين فيليبدس . وكان يدرس فى الجـامعة الأمريكيـة ، وهو مجموع لا مـؤلف سنة ١٨٩٢ ، وقد اطلعنا على هذا الكتـاب ، وصاحـباه حاطبـا ليل ، واستـغرق الجانب الـتاريخى السياسى معظم الكتاب على حساب الدرس الأدبى ، ولذا يصح أن يقال إن كتاب «العدل» هـو أول مؤلف فى العـربية فى هذا الفن ، ويسـتأهل صـاحبـه التقـدمة والسبق ، وعليهما نافلة من الثناء الحسن والتقدير المستطاب .

رسائل البشرى فى أدب الرحلات بألمانيا وسويسرا

مر على هذه الرحلة قرن وعشر حجج تعاقبت أمم وتبدلت بلدان ، لكنها تظل رائدة فى بابها ، تتجاوز صروف الزمن ، فتظل في سمع «أدب الرحلات» وذاكرة الأدب المقارن ، وتسجل لصاحبها سبقًا ، حين نشرت لأول مرة ، وحين تنشر ثانية بعناية الدكتور محمد حسن عبد العزيز رئيس قسم علم اللغة بدار العلوم .

صاحب هذه الرحلة اهتضمته ذاكرة الجيل المعاصر ، فلا تكاد تذكره بين رواد النهضة المصرية ، ويتردد اسمه خافتًا فى قاعات الدرس المتخصصة ، وإن كان مشفوعًا بآيات التجلة والتقدير ، مع أن الرجل حسن توفيق أفندى العدل (مارس ١٨٦٢ - مايو ١٩٠٤) كان ملء السمع والبصر فى جيله والأجيال التالية عليه إلى أن سحب النسيان بعد ذيوله عليه وعلى بعض رصفائه فى بلد «كل شيء فيه ينسى بعد حين» . . درس العدل فى الأزهر والتحق بدار العلوم إبان نشأتها ، وتخرج فيها دفعة وحده ١٨٨٧ ، ثم ابتعث إلى ألمانيا معلما للغة العربية فى المدرسة الشرقية ببرلين ، ومكث هناك بضع سنين يعلم ويتعلم الألمانية ، متجولاً فى أنحاء أوروبا باحثاً وسائحاً ، وحين يعود يدرس فى دار العلوم ، ويتولى التفتيش فى نظارة المعارف ، ثم يرحل إلى إنجلترا سفيرًا للعربية فى كمبردج حتى يقضى نحبه هناك، وينقل رفاته الى مصر المحروسة ، ويشيع رسميًا من محطة باب الحديد فى جنازة مهيبة، غبطه عليها الأستاذ الإمام محمد عبده قائلاً: «يا بختك يا حسن»!!

ويعجب القارئ لهذا التبجيل حين يودع العدل الخديو توفيق ، وحين يستقبله قناصل الدول التى مر بها ، وحين يقابل بسمارك ، ويكتب عنه بعض فصول رحلته البرلينية ، وحين يزور أنجال الخديو أثناء دراستهم فى أوروبا ، إلى غير ذلك من المشاهد التى تشى بدقة الكاتب . والشيخ حسن ذو روح طلعة، وكأن عينيه موكلتان برصد ما تريانه من مناظر بشرًا ومناهج دراسة ، ووقوفًا على أسباب النهضة ، وقلبه على مصر الوطن ، الذى يود أن يأخذ بأسباب النهضة ، ولايفوته

أن يمزج مشاهداته بروح فكهة ، لكنها الفكاهة الموزونة لا العابثة ، تلك التى تفطن لمواطن التوقير ، وكأين من مبتعثين إلى أوروبا يقضون السنوات هناك ، ثم يئوبون دون أن تتسلل إلى عقولهم ومشاعرهم أقباس مما شاهدوا وعرفوا ، وكم منهم أيضًا يعودون مفتونين بقشور النهضة دون لبابها ، فيكون ضررهم أبلغ من نفعهم .

بيد أن هذا «الدرعمى» كان مسلحًا بثقافة رصينة ، هى ثقافة هذا المعهد العريق وثقافة هذه الأمة فى أصالتها واعتدالها وتوهجها ، ثم أضاف إليها أمشاجًا مما ارتآه وارتأى حاجتنا إليه كما صنع سلفه رفاعة ، ولم يكن التخصص الدقيق مطلوبًا آنذاك ، ففتح عينه وهو لاقطة على مظاهر الثقافة والنهضة ، إذ ألف فى التربية البدنية وعلوم التربية وعلم النفس وأدب الرحلات الذى كان يرسله رسائل ، وكأنها التقارير من المكاتب الثقافية غير أنها بقلم عالم جليل لا موظف ضئيل ، كما ألف فى ميدان اقترن باسمه وهو التأريخ للأدب العربى الذي كان يدرس قبله في كتب الأدب القديمة كالآمالى والعقد الفريد والأغانى، دون خطة مرسومة أو منهجية فإذا بصاحبنا يؤرخ للأدب على طريقة العصور ، التى نعرفها الآن من جاهلية وإسلامية وأموية وعباسية إلخ ، وارتبط من يومها الأدب بالتقسيم السياسى، وهو منهج جديد آنذاك ، وشهد له بهذه الريادة عجم وعرب منهم «براون» المستشرق المعروف ، ودرس فى دار العلوم يقول عن كتابى العدل : «وفن التربية وتاريخ آداب اللغة العربية هذان الفنان من آثار اليد البيضاء التى لحضرة صديقى ورفيقى الشيخ حسن توفيق أفندى ، فإنه أول من وضع فيها الكتب ، ودرسها بتلك المدرسة (دار العلوم) على نظام تام،كما شهد له أحمد أمين وأحمد هيكل وعز الدين الأمين والطاهر مكى وعبد العزيز الدسوقى وآخرون .

ويلاحظ القارئ أن عنوان هذه الرحلة جاء مسجوعًا على طريقة المؤلفين آنذاك (الطهطاوى وعلى مبارك) وهى مرحلة من نهضة النثر المتراوحة بين السجع والترسل؛ ولذا يستشهد الشيخ بنماذج شعرية وحكايات من كتب التراث ، وكأنها على طريقة المقامات العربية بيد أن هذا لايكثر حين ينطلق الشيخ على سجيته ؛ ولذا ينبغى أن يعد من رواد النهضة النثرية وفى الرحلة تسجيل دقيق لمعالم البلدان،

تسعد مؤلفها معرفته بالجغرافيا والطبيعة والبشرية والتاريخ والصورة التى يرسمها للمزارات ، يكتبها قلم صناع لا رحالة هاو أو سائح ساذج تحيط بها إحدى عينيه، وعينه الأخرى على وطنه حين ينقد ما يراه هناك .غير متسق مع الأعراف الشرقية فى بلده ، وهى صورة أفلح فيها إلى حد بعيد ، كما تفيد دارس الأدب المقارن حين يدرس صورة ألمانيا وسويسرا فى الهزيع الأخير من ليل القرن التاسع عشر .

ولعل هذه الرحلة ونظائرها من تراث حسن توفيق أفندى. ترسم لنا صورة لرجل أخلص لثقافته وأمته ، وترسم صورة فى الوقت ذاته لذلك المعهد «دار العلوم» ، الذى تتحيف دوره الآن سهام مغرضة ، ترتد إلى رماتها، تحية لذلك القلم الشريف .

وتحية لمقدم الكتاب الذى يصل حاضراً بماض ناهض ، لا يزال يسرى فى أوصال المخلصين من أبناء هذه الأمة .

ترجمات القرآن الكريم إلى الإسبانية

ترتبط قضية «الإعجاز» بالقرآن الكريم ارتباطاً توأميًا ، حيث جاء النص الإلهى متحديًا لبلاغة العرب ، - وهم أهل لسن وفصاحة - ، ودليلاً على نبوة من أُنزل عليه «محمد» صلى الله عليه وسلم» ، ومن ثم فهو مباين لبيان البشر مباينة جوهرية ، وإن كان بلغتهم ، ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء ٨٨]ويصدق هذا الإعجاز على القرآن كله ، أو على بعضه ، فالأمر سواء . وهذه معجزة خالدة باقية بعد لحاقه صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وإلى يوم يبعثون .

وقد نزل القرآن بلغة العرب ، ولكنه بإعجازه وتحديه لغة داخل اللغة ، وجهد العلماء على كرِّ الأعصار فى مفاتشة وجوه الإعجاز ، فجمجموا ، ولم يصلوا إلى يقين قاطع فى البحث ، وإن استشعروا «المباينة» عن كلام البشر ، «متذوقين» - كل على قدر طاقته - بعضًا من هذه الوجوه ، وحين كان بعضهم يصيبه الإبلاس والتحير ، يقول «بالصرفة» كأن الله صرفهم عن مجاراته، و«الصرفة» كلام لا يقنع أحدًا ، وإن كان قائلوه يحاولون الخروج من مآزق البحث الحائر .

والقرآن أنزل على قلب النبى بلسان عربى مبين ، وترتبط حقيقة إعجازه بهذا اللسان ، فإذا ترجم إلى لغة أخرى صار شيئًا آخر، ونسخت آية إعجازه ، لأن المترجم بشر لايطاول هذا البيان ، وإن كان من الجبابرة ، وربما كان الجاحظ على كثير من الفقاهة ، حين ذكر أن الشعر العربى عندما يترجم إلى لغة أخرى ، تنسخ آية نظمه ووزنه ، فما بالنا بكلام مباين لكلام البشر!!

وعسير أن نقف على خبيئة أول ترجمة للقرآن إلى الإسبانية أو اللاتينية ، وإن كان القرآن الكريم مثيراً لأهل الجدل والديانات الأخرى فى إسبانيا خاصة ، نظراً لطول العشرة ، ومحاولة منهم للوقوف على حقيقة الإسلام وكتابه ، لأغراض متعددة ، بعضها كان للمناجزة والتحدى ، وقليل منها للنظر المجرد والمعرفة .

كان بطرس الموقر أو الجليل Pedro Venerable ، رئيس رهبان كلونى ١٠٩٤ / ١١٥٦م ، قد زار الأديرة التى تتبع رهبنتة فى إسبانيا ، وكان مهتمًا بأمر معرفة الإسلام ، والتوصل إلى حقيقته فشكل فى إسبانيا جماعة من التراجمة يعملون فريقًا واحدًا . وأتم روبرت دى كيتون R. de Kettón الإنجليزى ترجمته للقرآن عام ١١٤٣م إلى اللغة اللاتينية ، وتلبية لطلب بطرس الموقر أيضاً قام Herman di Dal-matia ، هرمان الدلماشى بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية ، ثم أمر ألفونسو العالم Alfaonso Sabio - وكان بلاطه يتنفس هواءً عربيًا - بترجمة الإنجيل إلى اللغة الإسبانية ، وبنقل القرآن إليها فنقلت الترجمة اللاتينية التى ترجمت بأمر بطرس إلى اللغة الإسبانية .

أمامى الآن ترجمات إلى الإسبانية ، منها ثنتان على غلافهما «محمد» Moho-ma بعد كلمة القرآن ، وكأنه اسم المؤلف ، ونحن لا نطالب الناس أن يكونوا على ملتنا ، يعتقدون ما نعتقد ، ولو آمن المترجمان بأن القرآن وحى من الله لكانا على ملتنا ، وكتابة كلمة «القرآن» مختلفة إملاءً ، أولاهما جاءت هكذا : El Ko-ran ، وهى الطبعة التاسعة ، قام بها وبمقدمتها خوان ب بيرجوا : Juan B. Bergua ، نشرت فى المطبعة الإيبرية بمدريد سنة ١٩٦٣ فى ٤٦٧ صفحة . وجاءت الثانية هكذا : El COR´AN ، كتاب الإسلام المقدس El libro Sagrado del Islám .

وربما كانت هذه الكلمة أدق إملاءً ، نشرت فى مدريد سنة ١٩٩٨ ، وفى صفحة داخلية كتب : Autor أى مؤلفه محمد ، وتقع هذه النشرة فى ٤٧٩ صفحة ، وجاءت المقدمة فى صفحتين فقط بتوقيع .V. Tariqa .

أما الترجمة الثالثة ، فقام بها خوان بيرنيت ، وهو أستاذ اللغة العربية وآدابها فى كلية الآداب والفلسفة فى جامعة برشلونة ، وهذا الرجل يهتم اهتمامًا بتاريخ العلوم فى الأندلس ، وهو رأس مدرسة قائمة بذاتها وله تلاميذ ولدات يحذون حذوه ، من أهمهم : خوليو سامسو ، ولأن بيرنيث مستشرق لم يمهر نشرته بكلمة «محمد» مؤلفًا ، بل اكتفى بكلمة القرآن ، وقدم لها بمقدمة مسهبة عرض فيها لتاريخ النبى أو السيرة النبوية ، وتلبث لدى القرآن وسوره ، مدنية ومكية ،

ووقف على مصادر عربية ، وأوصى أن يقف قارئ ترجمته عند نولدكه وبلاشير ، وواضح أنه اتكأ على ترجمات من لغات أخرى أهمها ترجمة بلاشير الفرنسية . ووقعت ترجمته فى ٧٢٧ صفحة .

والترجمة الرابعة قام بها خوليو كورتيس ، نشرت فى مدريد ١٩٧٩ ، شفعها بمقدمة وتعليقات ، وقعت فى ٦٠ صفحة ببنط دقيق ، تحدث فيها عن تاريخ الإسلام ، وأصول العقيدة ، والقرآن تاريخيًا ، وجاءت الترجمة فى ٨١٢ صفحة.

والترجمة الخامسة جاء عنوانها هكذا : Al Qurán ، وتحتها El Corán ، وواضح أن المترجم يقتفى تقليداً استشراقيًا أندلسيًا فى كتابة الأسماء العربية كما اعتمدتها مجلة الأندلس ، بيد أن المترجم ذكر بين يدى ترجمته : ترجمة أدبية وتعليقات بقلم ألبرو ماتشوردوم كومينس ، وهذا الرجل قد اعتنق الإسلام منذ ثلاثين حولاً أو يزيد ، وأصدر بعض كتب عن «محمد» وأركان الإسلام ، وتسمى باسم : أحمد عبد الله ، وقد راجعت معه أثناء إقامتى فى مدريد ترجمته لسور : الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء ، وكنت أجد عنتًا شديدًا فى المشاركة والمراجعة، وكان نقل جبل أهون علىَّ من ترجمة كلمة ، وأحسست - بصدق شديد - أن النص المترجم ليس بالقرآن كما أحفظه وأعرفه وأتذوقه ، وكنت أهتف بينى وبين نفسى : لا تجوز ترجمة القرآن . كما كنت أحس الإحساس ذاته عند قراءتى أية ترجمة للكتاب الكريم ، ثم عدت إلى مصر ، وأتم ألبرو ترجمته كاملة وحمل إلىَّ نسخة .

جاءت الترجمة فى ٦٠٤ صفحة من القطع الكبير ، نشرت سنة ١٩٩٥ ، وإن كان قد نشر المترجم جزءًا سنة ١٩٨٠ ، وقعت المقدمة فى ٤٢ صفحة ، رجع فيها إلى مصادر عربية ، ومصادر وسيطة إنجليزية وفرنسية .

أما الترجمة السادسة والأخيرة ، فتولتها المملكة العربية السعودية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - بالمدينة المنورة سنة ١٤١٧ هـ ، ولم يجز القائمون عليها القول بالترجمة ، بل قالوا : وترجمة معانيه إلى اللغة الإسبانية ، وقام بها فضيلة الشيخ عبد الغنى ميلار انابيو ، وراجعها : الشيخان عمر عبد الله قدورة ،

وعيسى عمر كفيدو ، وجاء عيسى عمر هكذا ، وصوابه «عامر» .

ومن مراجعة هذه الترجمات ، نؤكد أنها كانت أمام من يترجم ، يتقيّل اللاحق خطى السابق ، فى الإسبانية وفى غيرها من اللغات ؛ حيث كان اللاحق يفتح الترجمات السابقة عليه ، ويقوم بصياغة الترجمة ، حسب بضاعته من اللغة المنقول منها والمنقول إليها ، وغالبًا ما يقعون فى أخطاء متشابهة ، ولنا الآن أن نقف لدى بعض هذه الأخطاء ، دون تعقبها واحدا واحدا ، فهذا يخرج بنا عن سواء هذا المقال .

من حسنات هذه الترجمات أنها تعطى فكرة - ولو غائمة - عن القرآن الكريم للقارىء فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية ، بصرف النظر عن دقة الترجمة أو عدم دقتها، وعن التوجهات التى تحملها الأغراض غير المحايدة ، وبخاصة تلك الترجمات المشفوعة فى عناوينها بكلمة «محمد» مؤلفاً .

من الأخطاء الغريبة ترجمة كلمة «الناس» بكلمة hombres ، حتى فى الترجمة السعودية ، وتعنى هكذا : الرجال «قل أعوذ برب الرجال» صحيح أنها للتغليب للذكر على الأنثى ، وفى مقابل «الجن» ، لكن الأدق منها كلمة gente ، وقد جاءت لدى ألبرو humanos وتعنى الإنسان ، وأدق منها ما اقترحناه ، وإن كانت أقرب إلى المراد من كلمة «الرجال» ، وملحوظ أن ألبرو أو أحمد عبدالله حاول جاهدًا أن يقف على ترجمات سالفة ، أفاد منها كثيراً ، ولأنه أديب فى لغته فقد جاءت ترجمته حرة إلى حد كبير ، يحتفى بالصياغة كثيرًا وإن نأت به عن الدقة ؛ حيث تعنيه الترجمة الأدبية كما ذكر على غلاف ترجمته .

خطأ بشع جدًا ما جاء فى ترجمة خوان بيرنيت ، وهو بنصه :

"Dios no se avergüenza de poner por Parábola un mosquito o lo que está por encima de Él"

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. ﴾ [البقرة ٢٦]، وترجمة صاحبنا بالعربية : «إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوق الله» ؛ لأن كلمة "Él" بهذا الرسم المكبر تعود إلى الخالق عز وجل ، تعالى الله

عن ذلك علواً كبيراً !

والذى أوقعه فى الخطأ أن كلمة بعوضة مـذكرة فى الإسبانية ، ويمكن أن يعود الضمير عليها بلا تثريب ، لكنه كتب الحرف مكبراً فانصرف إلى الخالق عز وجل، ولعل هذا من الجهل بالعربية ، وهو يتكئ على الترجمات الوسيطة فى هذا الموضع من الترجمة القرآنية ، وفيما يقوم به من أعمال .

ومعلوم أن كـثيرين من أهل الاسـتشراق ليس فى ذرعـهم الولوج إلى النص ، والتدسس إلى مجـاهله وتذوقه ، بل هم - غالبًا - يقفون بالوصـيد ، ويحسنون مـعرفـة الأمور التـاريخيـة إلا من رحم ربك وهم قليل ، لكنهم على كل حـال يقومون بدور جيد تساعدهم عليه وسائل البـحث العلمى الميسرة ، التى نفتقر إليها فى بلادنا ، ومعرفة واسعة بلغات مـتعددة ، لكننى أرانى شديد التحرج والتحنث من ترجمة القرآن الكريم إلى أية لغة وإن كانت هى الذريعة الوحيدة لفهم الإسلام وكتابه العزيز .

موسى بن أبى الغسان
البطل الغرناطى الأسطورة

فى لحظات التردى والأفول تتوهج بطولات فردية ، لا تأخذ فيما يأخذ فيه الناس ، ولو كانوا ملوكًا وأمراء ، ولا تستكين للمنطق الجماعى ، الذى ديدنه حساب الخسائر والمغانم ، ومن ثم يهبون للحياة معناها ، والحياة هنا «بالألف واللام» المستأهلة التعريف ، لا الحياة النكرة التى نعاها القرآن الكريم على اليهود الراضين بأى حياة ، ولو كانت حياة السائمة والهوام «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة» .

كانت شمس الإسلام فى الأندلس تؤذن بأفول وشاحه. صحيح أنها فى غرناطة كانت تبرز من خلل السحاب والعتمة ، لكنها كانت آخذة فى سكرات الموت ، أحدق اليأس والخيانة الداخلية والمساومات الخارجية مع عدو يتربص بها الدوائر ، ويحاول أن يجد ثلمة يجوس خلالها حتى النخاع ، وبدا للناس منذ سقطت طليطلة ما تنبأ به الشاعر .

يا أهل أندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

وقد تحققت هذه النبوءة مع الأيام حتى المحاولة الأخيرة فى غرناطة «آخر درة جميلة فى عقد الإسلام الأندلسى» - على حد تعبير دون إميليو غرثيه غومث ، تشظت المملكة النصرية فى أخريات سويعاتها إلى قبيل مع أبى عبدالله الصغير ، وقَبيل آخر مع عمه الزغل ، وصرح الشر بينهما فأمسى وهو عريان ، وتنهّز الملكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابل النهزة ، فاقتطعا أحوازًا من هذه المملكة المفردة فى الأندلس ، وفرضا الجزية على أبى عبدالله الصغير ، وصنعت دسائس القصور والخيانة صنيعها فى التعجيل بالسقوط . . صحيح أن الحرب كانت سجالاً بين الفريقين ، لكنها كانت تئول أو تتخللها معاهدات سرية بين أولى الأمر من

المسلمين على التسليم ، والخروج بمغانم كثيرة ، وكان كثير منهم يدرك أن النهاية قادمة لا ريب فيها ، فباعوا ما يملكون ، مستعدين أن يكونوا رعايا ، أو يخرجوا إلى غير عودة ، وانقطعت الإمدادات المغربية التى كانت تنجد ملوك الطوائف كالمرابطين والموحدين ، وأعقبتهم طائفة من الملوك اسمًا لا فعلاً ، فتخاذلوا عن النصرة وأنى لهم بها ، وهم يعانون جراح الموت كما كانت غرناطة تعانى ، وغاب عن ملوك بنى نصر الغرناطيين - الصفة للتوضيح فقط - ما كانوا يؤملونه من عون مصرى أو تركى ، ولدى التاريخ مكاتبات بالشعر والنثر ، تستنهض المماليك فى مصر ، والسلاطين فى تركيا ، ولم يكن الرد مشفوعًا إلا بالصبر والجلد ، والعدات الحسنة التى لم تتعدّ حدود الكلام .

ومن استقصائنا لحوادث التاريخ ، أدركنا أن الهزيمة لا تحيق ببلد إسلامى ما كانت مصر قوية . . ولو كانت مصر المملوكية على قوتها لكان التاريخ قد تغير كثيرًا ، ولكن التاريخ لا يعترف «بلَوْ» .

ومحاولة استقصاء الحرب الأخيرة فى غرناطة تخرج بنا عن سواء هذه الكلمة ، بيد أن الداخل فى «السواء» هو ما سطره التاريخ المسيحى والمسلم عن هذا البطل الغسانى ، الذى تجود بمثله اللحظات التاريخية القانطة .

تقول الروايات إنه من الأسرة المالكة ، وإن المؤرخ المسيحى «قوندى» ذكر طرفًا من حكاياته التى نقلها عن المؤرخين المسلمين ، لكنه لم يذكر كعادته مصادره الناقل منها ، وإن الكاتب أنطونيو أجابيدا كان مصدرًا أساسيًا لرواية الكاتب الأمريكى واشنطن إيرفنج «فتح غرناطة» .

تتحدث تلك الروايات عن موسى ومعارضته الشديدة للتسليم ، والمفاوضات التى أجراها أبو القاسم عبد الملك والوزير ابن كماشة فى بهو الحمراء مع أبى عبدالله وكبار رجاله كما نقول الآن لعلم موسى بما وراء السجف والأستار ، وهى معاهدة من ستة وخمسين بندًا ، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، وقد وصفها مؤرخ غربى بقوله : «إنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسبانى فيما تلا من العصور» ، وقد رضى الناس بالدنية حاشا موسى بن أبى الغسان ، الذى أعلن رفضه مرارًا ، قائلاً فى إحدى هذه المرات : «نحن لم نفقد كل الأسلحة ، لدينا

سلاح اليأس» ، لكن الأمور حين تهوى . . فإنما تهوى إلى هوة سحيقة على حد تعبير أنطونيو جالا الكاتب القرطبى الذائع ، رأى موسى المشهد الحزين فى بهو الحمراء . . العيون دامعة ، والأضلاع جائشة ، والقلوب راجفة بلغت الحناجر ، حينئذ نطق صوت كأنه ينبثق من أعراق الأزل ، هو صوت الحق المهين الذى تلتهمه القوة الغاشمة ، قال صوت موسى :

«اتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء ، وإنى لأرى روح الأمة قد خبت ، حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ، ولكنْ ثمة بديل للنفوس النبيلة ، ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعاً عن حرياتنا وانتقامًا لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحرارًا من أغلال الفاتح وعسفه ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعًا عنها» هذه رواية قوندى Condé ، فى ترجمة عبد الله عنان ،ولم نشأ التصرف فى لغة الترجمة ولا صياغتها إلا فى موطن واحد .

كان صوت موسى وسط هذه اللجة الكثيفة من الأحزان ، ووسط تسليم وإذعان ، يرى أن هذا هو القضاء الذى لا راد له مع أن الإنسان بتخاذله ، كما هو حال الغرناطيين الكبار ، ولا نقول : الأمة المختنقة الصوت ، كان فى ذرعه أن يتخذ الأسباب ، ربما كانت عائشة الحرة أم أبى عبدالله حين رأته ينشج ، هى التى شاركت موسى شطراً من آرائه ، التى اتخذ فيها السبيل البطولى إلى آخره ، رمقته عائشة بقولها :

ابك مثل النساء مُلكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال

والبيت الذى قالته عائشة ربما تمثلت به ، ويروى فى كتابات الناس على أنه نثر - وربما كان هذا إرهاصاً بهزيمة أخرى تساورنا الآن ، وهى لا تقل عن الهزائم العسكرية وهى «قصيدة النثر» فيما يسمونها ، وهذا البيت لايزال الإسبان حتى طلاب المدارس وأهل غرناطة خاصة يرددونه فى إسبانية عذبة ، وإن كانت حزينة المقاطع بالنسبة لنا.

لم يركن موسى إلى ما ركن إليه الناس ، بل كان رفضه عمليًا ، حيث أراد الموت الشريف غادر المجلس حين رآه خشبًا مسندة مخترقًا بهو الأسود ، دون أن يتفوه ببنت شفة ، وذهب إلى داره وغطى نفسه بسلاحه ، واقتعد غارب جواده ، وواجهته سرية مسيحية من خمسة عشر فارسًا ، عرفوه ، واشتجرت بينهم وبينه معركة أثخن فيهم حتى أفنى معظمهم حتى أصيب بجرح بليغ فاستل خنجره وظل يطعن به ، حتى ابتلعه ماء نهر شنيل ، وعرفه الناس بجواده المطعون .

هذا ضرب من البطولات الفردية التى تصنع تاريخها ، وأصحابها لم ولن يكونوا من أوساط الناس ؛ فالشر فى الوسط فى مثل هذه الحالات ، والتضحيات الإنسانية التى من هذا النمط هى شرف للإنسان ، وهل هناك شرف بلا تضحية وبتضحية عظيمة ؛ لأن حياة الخنوع إصر ثقيل فادح لا تحتملها تلك الأجلاد البطولية ، التى هى من الإنسان ، وكأنها ليست من الإنسان .

وقد وقف أبو همام مليًا فى غرناطة ، وقضى الليالى ذوات العد ، يتحسس خطى هذا الفارس الملثم ويستاف عبيره ، لعل لنا من أصلابه ما يحيى رميم الموات فى أبناء العربية والإسلام .

الغجـــــر

موضـوع عسير ، لتـشعب مسالكه ، يتـحدث عن أناس يعيـشون بيننا ، وهم غرباء عنا ، أو نحن غرباء عنهم ، سعداء بـهذه الغربة الموحشة ، أو هكذا يظنون أنفسـهم ، أو نظنهم نحن، وربما كان بعضنا منهم دون أن ندرى هذه الواشـجة ، على الأقل حين تجتاحنا رياح الغربة القانـطة ، أو حين نلفظ ماتعارف عليه العرف الذليل ، مزدرين له إذا كان فى ذرعنا أن نقول : «لا» لهذا العرف الوبئ ، وغالبًا مانقـولها فى وحدتنا الـيابسة ، مـتمنين فى أعمـاقنا أن نسلك مسلك الغـجر فى الجهسر بها دون خشية ، وذلك مطلب عزيز !

وكتـاب «الغجر» لمؤلفـه سير أنجوس فـريزر ، ترجمه رجل شـديد التواضع ، شديد الكبـرياء فى الوقت ذاته هو الدكتـور عبادة كـحيلة ، أستـاذ التاريخ بآداب القاهرة ، وهو مؤرخ «أدّب» التاريخ ، فى مـؤلفاته ومترجماته ، فلغتـه مشرقة ، تميل إلى التصوير ، والزخـرفة التى تأتى فى موضعها جمـالاً ودقةً ، وله مؤلفات عديدة فـى التاريخ الأندلسى عـربيًا ومـسيحـيًا، كـما أن له تراجم شـخصـية ، وموضـوعات تتـناول البحـر وتاريخ الرحلات ، وإذا علم القـارئ الكريم أن هذا الرجل ينشر حـتى الآن مؤلفـاته على نفقتـه الخاصـة ، أدرك فى التو أى نمط من الرجال هذا الأسـتاذ الصابر المحـتسب ؛ لأنه لايستطـيع إلا أن يؤلف وأن ينشر ، دون أن ينتظر جزاءً ولاشكوراً إلا جزاء العلم ونشره ، مع أنه تعـتريه أحياناً نوبات من القنوط تسـاوره ، غيـر أنه يزيحهـا بإصرار ، وهو فى لغـته وبحوثـه يذكرك بالكاتب الراحل المتـرجم والمؤلف الأستـاذ على أدهم ، وكانت تسـاوره مثل هذه النوبات . . إلا أنه ظل يكتب طوال حياته .

والحديث عن المؤلف قـبل كتابه المترجـم بمثل هذه السطور ضرورة ؛ لأنه يرى فى إهدائه «إلينا حتى لانتـحول جميـعًا إلى غجر» نوعًا من الأمـل وإن كان يابسًا والكتاب عـسير فى مادته حـيث يتناول قطاعًا ضخمًـا من البشر ، يعيـشون على

هامش المجتمع ، ولهم تقاليدهم الخاصة المضنون بها على غيرهم ، وهو متشعب المسالك حين يدرس الأصول اللغوية والهجرات فى كل بلاد الدنيا تقريبًا ، ويدرس السلالة البشرية هذه بكثير من التفصيل ، تراثهم وترحيلهم وعذابهم وآمالهم التى هى آلام ، وفنونهم الموسيقية مستقصيًا هذه الأقوام عبر الحدود شرقية وغربية ، ومصادر الكتاب شديدة التنوع والثراء ؛ ولذا كانت مهمة المترجم صعبة جدًا ، ولكنه كان فى مستوى جيد ، وقد لَذَّ لى أن أتتبع الغجر فى إسبانيا ، ورؤية المؤلف لهم ، ورأيتها قريبة من الصورة التى عرفها المؤلفون الإسبان ، وإن كان لم يتناول بعض البحوث الموسيقية ، كما كتب عنها شاعر غرناطة لوركا ، فى الكانتى خوندو ، وثمة بحوث أخرى عن «القنقيين» ، وهى ذات أصل عربى ، وكتبت عنهم إلينا (بيثى) ، وعن صناعاتهم وهجراتهم المتعاقبة ، وثمة بحوث أخرى لمرثيدس غرثية أرينال وغيرها ، ولكن المؤلف ماكان فى ذرعه أن يحيط بكل هذه البحوث فى البلدان المتعددة وتبلغ حوالى العشرين ، وماكان مطلوبًا منه هذا ؛ لأنه يقدم صورة كلية عن العجر جنسًا ، وتاريخًا وحضارةً ، ولغةً وفنونًا ، وكان التاريخ فى معظمه داميًا ، حزينًا ، وقد نشر الكتاب هذه المرة فى سلسلة المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة ولم ينشره على نفقته كعادته ، ولعل هذا من حسنات الغجر ، وفألهم الحسن الذين كفلهم عبادة كحيلة وجابر عصفور فى طبعة رائعة أنيقة ، وهم يستحقون منا جميعًا هذه الكفالة ، إن رضوا أن ينضموا إلينا ، قبل أن ننضم نحن إليهم ، غرباء قانطين .